

مسألة محيرة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونسأله الهداية والتوفيق لأقوم طريق، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين. وبعد: فإن الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره هو أحد أركان الإيمان المشهورة، وبه يطمئن العبد، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه، ومع ذلك فإنه مأمور بفعل الأسباب، ومباشرة الأعمال لدينه ودينه، حيث منحه ربه قوة في العمل وقدرة على مزاولته، وبهذه القدرة يتحصل على ما كتب الله له من الرزق في هذه الحياة، وبها يعمل ما يثاب عليه في الآخرة، أو يعاقب من الحسنات أو السيئات. وحيث إن هناك طائفة الجبرية الذين غلبوا جانب القدر، واحتجوا به على ما وقعوا فيه من المعاصي، فقد شابهوا المشركين الذين قالوا: { لَوْ نَشَاءُ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا } فرد الله عليهم بقوله: { قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا } ولكن هؤلاء الجبرية إنما يحتجون بالقدر على المعاصي، وفيهم يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى- وعند مراد الله تفنى كميت وعند مراد النفس تسدي وتلحم وعند خلاف الأمر تحتج بالقضا ظهيرا على الرحمن للجبر تزعم وبهذا يعرف تناقض هؤلاء الجبرية، فإن الاحتجاج بالقدر إنما هو بعد المصائب والوقائع؛ لقوله تعالى: { لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ } فإن الإنسان مأمور بفعل أسباب الخير، والتوقى عن أسباب العطب والضرر، وأخذ الحذر من أسباب الأمراض والعاهات، فلا يتردى من شاهق، ولا يتعرض للسباع والهوام، ولا يسلم نفسه لأعدائه وهو يقدر على الامتناع، وعليه أن يتوقى البرد والحر وأسباب الأمراض والمصائب، ولا يتهور ويلقى بنفسه إلى التهلكة؛ فإن من أودى بنفسه أو أتلّف ماله متعمدا مع قدرته على الإمساك فهو أقرب إلى وصف الجنون والخيال. ومن تعاطى أسباب الهلاك كأكل السم وإتلاف المال، فإنه يحجر عليه، ويمنع من التصرف، ولا يقبل احتجاجه بالقدر والكتابة العامة لكل ما يجري في الكون، فإن الله تعالى هو الذي قدر المقادير، ومع ذلك أمر العباد ونهاهم، وكلفهم، وفرض عليهم الفرائض، وحرّم عليهم محرّمات، ووعدهم على الامتثال بالثواب، وعلى العصيان بالعقاب. ولا شك أن هذا دليل التمكن والقدرة على مزاولة الأعمال، وقد قال تعالى: { قَاتِلُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } فدل على أن التكليف مشروطة بالاستطاعة، وتسقط عند العجز، كما شرط الله في الحج الاستطاعة، وقال تعالى: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } . وقد كنت كتبت جواب سؤال لبعض من زعم الحيرة وساء فهمه، وعاند في الطاعة، واحتج بالقدر، وأشبه الشيطان في قوله: { رَبِّ يَا عَظِيمِي } وقد أجبت باختصار حسب ما يتضح به الصواب، وأحلت بالتفصيل على ما كتبه علماء الأمة وتوسعوا فيه، وناقشوا فيه شبه المبطلين، وقد رغب إلي بعض الإخوة في نشره رجاء أن يقتنع به أهل العناد، فأذنت له في ذلك، وأضفت إليه تكملة من رسالة للشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله تعالى- من شرحه لقصيدة شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على الجبرية، وفي ذلك كفاية ومقنع لمن قصد الحق بالصواب. وأما من عاند وأصر على الاحتجاج بالقدر، فعلاجه أن يضرب ويجلد، ويضيق عليه، ويحتج بالقدر، حتى تنقطع شبهته، والله أعلم وأحكم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم. عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين